جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالديدامون – شرقية

الموقف الوسطي لأبي المعين النسفي من صفة الكلام الإلهي عند القاضي عبدالجبار

إعداد

دكتور: عمرو محمد بيومي محمد

المدرس بقسم العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بالشرقية – جامعة الأزهر

المؤتمر العلمي الدولي الأول

١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م

الموقف الوسطي لأبي المعين النسفي من صفة الكلام الإلهي عند القاضي عبدالجبار

عمرو محمد بيومى محمد

قسم: العقيدة والفلسفة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

بالديدامون – شرقية المدينة: فاقوس جامعة الأزهر

الدولة: جمهورية مصر العربية

ملخص البحث

- مقدمة : وتتضمن أهمية الموضوع ،وأسباب اختياره ومنهج البحث وخطته.
- **تمهيد : ويشتمل على التعريف بالقاضى عبد الجبار ، والتعريف بالإمام النسفى .**

المبحث الأول : الصفة بين المفهوم والدلالة

ويشتمل على ما يلى :

أولا : مفهوم الصفة في القرآن الكريم.

ثانيا : تعريف الصفة عند علماء اللغة العربية.

ثالثا : تعريف الصفة وبيان أقسامها عند القاضى عبد الجبار.

رابعا : تعريف الصفة وبيان أقسامها عند الإمام النسفى.

المبحث الثانى : مذهب القاضى عبدالجبار والإمام النسفى في صفة الكلام الإلهى.

ويشتمل على ما يلى :

أولا : مذهب القاضى عبد الجبار في كلام الله تعالى .

ثانيا : وسطية الإمام النسفى في كلام الله تعالى.

الخاتمة : وتتضمن أهم النتائج التى توصل إليها البحث.

الكلمات المفتاحية: الوسطية – الكلام – الآلهي

The moderate attitude of Abu Al-Ma'in Al-Nasafi on the attribute of divine speech according to Judge Abdul-Jabbar

Amr Mohamed Bayoumi Mohamed
Department of Faith and Philosophy
Faculty of Islamic studies and Arabic male al-diadamon – sharqia city: Faqus AL-Azhar University country: Arab republic of Egypt

Abstract:
Introduction: It includes the reasons for the topic, the reasons for choosing it, the research method and plan.
Preface : It includes the introduction of Judge Abdul-Jabbar, and the introduction of Imam Al-Nasafi.
The first topic: the adjective between concept and significance
It includes the following:
First: The concept of adjective in the Noble Qur'an.
Second : Definition of the adjective according to Arabic linguists.
Third: Defining the adjective and explaining its divisions according to Judge Abdul-Jabbar.
Fourth : Defining the adjective and explaining its divisions according to Imam Al-Nasfi.
The second research: the school of thought of Al-Qadi Abdul-Jabbar and Al-Imam Al-Nasafi in the description of divine speech.
It includes the following:
First: The school od thought of Judge Abdul-Jabbar in the words of God Almighty.
Second: The moderation of Imam Al-Nasfi in the words of God Almighty.
Conclusion: It includes the most important results that have been reached.

Key words: **moderate- - speech- Judge** .

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل المرسلين ، سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – النبي العربي الأمي الأمين وعلى صحبه والتابعين ، وبعد :

فهذه دراسة حول قضية من قضايا علم الكلام الإسلامي الذي هو أعظم العلوم قدراً ، وأرفعها شرفاً ، وهو أساس الشرائع والأحكام ، ومقياس قواعد عقائد الإسلام ، وهو أعز ما يُرغب فيه ويعرج عليه ، كما أن علم الكلام من أوثق العلوم بنياناً ، وأصدقها تبياناً ، وأعلاها شأناً، وأكرمها نتاجاً ، وأنورها سراجاً ، وأقواها بُرهاناً ، وأصحها حجة ودليلاً ، وأوضحها محجة وسبيلاً.[1]

والفائدة الدنيوية لهذا العلم هي انتظام أمر المعاش على وجه لا يؤدي إلى الفساد ، وأما فائدته في الآخرة فهي النجاة من العذاب المرتب على الكفر وسوء الاعتقاد .[2]

والقضية موضوع هذه الدراسة هي : (الموقف الوسطي لأبي المعين النسفي من صفة الكلام الإلهي عند القاضي عبدالجبار) .

أهمية الموضوع وأسباب اختياره :

١ – إن مسألة الصفات الإلهية بوجه عام من أهم المسائل التي دار حولها النزاع بين الفرق الكلامية الإسلامية الكبرى ؛ لأن الصفات طريق إلى معرفة الله تعالى والإيمان بوجوده ، فإنه تعالى لا يُعرف إلا بصفاته التي وصف بها نفسه في كتابه وأنزلها على نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – .

٢ – إن صفاته – سبحانه وتعالى – سبيل لإدراك الإنسان لصلة الباري – سبحانه وتعالى – بالعالم إبداعاً، وتصريفاً، وإحاطة، وتقديراً ، وتدبيراً ، فلا شيء من موجودات هذا العالم إلا وهو أثر

---

[1] راجع : نهاية العقول في دراسة الأصول ، للفخر الرازي ج١ ص١٩٣ ، تحقيق د / محمد شحاته إبراهيم ، رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين بالقاهرة سنة ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .

[2] راجع : شرح المقاصد ، لسعد الدين التفتازاني ، ج١ ص١٥ ، ط٢ ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، سنة ٢٠١١ م .

من آثار تلك الصفات ، هذا بالإضافة إلى أن مسألة الصفات يتفرع عنها الكثير من العقائد كالنبوة ، والبعث الأخروي ، وغيرهما . [1]

٣ – إن صفة الكلام الإلهي من أشهر مباحث علم الكلام وأكثرها جدالاً ، وهي مسألة قديمة قِدم التاريخ الإسلامي العقلي والسياسي .

٤ – ارتباط صفة الكلام الإلهي بمسألة خلق القرآن ، ولقد وقع نزاع كبير لدى مفكري الإسلام عموماً ، والمتكلمين على وجه الخصوص حول فهم طبيعة الكلام الإلهي ، هل هو قديم أم محدث ؟ أو هل هو مخلوق أم غير مخلوق ؟ وبسبب هذه المسألة عُذِّب الكثير من العلماء ، وسالت دماؤهم في العصر العباسي . [2]

٥ – الوقوف على حقيقة مهب القاضي عبدالجبار ، والإمام النسفي في مسألة صفة الكلام الإلهي، وبيان مدى اهتمام كلٍّ منهما بالمسألة .

منهج البحث :

إن دراسة هذا الموضوع تحتاج إلى المناهج التالية :

١ – المنهج الاستقرائي : وذلك بتتبع أقوال القاضي عبدالجبار ، والإمام النسفي في مسألة صفة الكلام الإلهي من خلال مؤلفاتهما .

٢ – المنهج التحليلي : وذلك لتحليل الأقوال والآراء والنصوص وشرحها شرحاً وافياً يتفق مع طبيعة البحث بأسلوب واضح بعيد عن التعقيد .

٣ – المنهج المقارن: وذلك من خلال المقارنة بين الآراء المختلفة للقاضي عبدالجبار، والإمام النسفي.

مع الالتزام بالقواعد اللازمة للبحث العلمي ومنها ما يلي :

١ – عزو الآيات القرآنية إلى أماكنها في المصحف الشريف بذكر اسم السورة ورقم الآية .

---

[1] قضية الصفات الإلهية وأثرها في تشعب المذاهب واختلاف الفرق ، أ . د / حسن محرم الحويني ، ص٣٣ ، ط دار الهدى للطباعة ، سنة ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م .

[2] تاريخ الجهمية والمعتزلة ، لجمال الدين القاسمي ، ص٦٩ باختصار ، ط١ – مؤسسة الرسالة – بيروت ، سنة ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩ م .

٢ – تخريج الأحاديث النبوية الشريفة من كتب السنة الصحيحة .

٣ – نسبة النصوص والأقوال إلى أصحابها بالرجوع إلى مؤلفاتهم الأصلية .

٤ – التعريف بالأعلام الوارد ذكرهم في البحث .

٥ – التعريف بالمصطلحات والتيارات والمذاهب المختلفة .

٦ – عمل خاتمة تتضمن أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

٧ – عمل الفهارس الفنية التي يحتاج إليها البحث تسهيلاً على القارئ .

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة :

أمَّا المقدمة : فذكرت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره، ومنهج البحث وخطته.

أمَّا التمهيد: فيشتمل على التعريف بالقاضي عبدالجبار المعتزلي، والتعريف بالإمام النسفي الماتريدي.

أمَّا المبحث الأول : تعريف الصفة وبيان أقسامها ، ويشمل ما يلي :

أولاً : تعريف الصفة عند علماء اللغة .

ثانياً : تعريف الصفة وبيان أقسامها عند القاضي عبدالجبار .

ثالثاً : تعريف الصفة وبيان أقسامها عند الإمام النسفي .

المبحث الثاني: مذهب القاضي عبدالجبار والإمام النسفي في الكلام الإلهي، ويشمل ما يلي :

أولاً : مذهب القاضي عبدالجبار في صفة الكلام الإلهي .

ثانياً : وسطية الإمام النسفي في صفة الكلام الإلهي .

الخاتمة : وتتضمن أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

وبعد ، فإني أسأل الله – تعالى – أن يجعل هذا العمل مُوفقاً مقبولاً ، وأن يجعله في ميزان حسناتي، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الأخيار وسلم تسليماً كثيراً .

دكتور . عمرو محمد بيومي محمد

مدرس بقسم العقيدة والفلسفة

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية

تمهيد

ويشتمل على ما يلي :

أولاً : التعريف بالقاضي عبدالجبار .

ثانياً : التعريف بالإمام النسفي .

أولاً : التعريف بالقاضي عبدالجبار :

أ – اسمه ونسبه : هو أبو الحسن قاضي القضاة عبدالجبار بن أحمد بن عبدالجبار الهمذاني أبو الحسين ، قاضي أصولي ، وكان شيخ المعتزلة [1] في عصره ، وهم يلقبونه بقاضي القضاة ، وهو من أعلام معتزلة البصرة . [2]

ولد سنة ٣٢٠هـ [3] ، وكان شافعياً في الفروع ، فلما حضر مجلس العلماء ونظر وناظر عرف الحق فانقاد له [4] .

ب – منزلته العلمية : يذكر صاحب المنية أن القاضي عبدالجبار هو : " الذي فتق علم الكلام ونشر بروده، ووضع فيه الكتب الجليلة التي بلغت المشرق والمغرب ، وضمَّنها من دقيق الكلام وجليله ما لم يتفق لأحد مثله ، وكان مواظباً على التدريس والإملاء حتى طبَّق الأرض بكتبه وأصحابه، وإليه انتهت رئاسة المعتزلة في عصره حتى صار شيخها وعالمها من غير مدافع "[5]

وكان أبو الحسن عبدالجبار واسع الأفق ، متنوع الثقافة وغزيرها ، وكان صاحب حُجة ، ومعرفة واعتداد برأيه ، وكثيراً ما حاول الدفاع عن رجال الاعتزال بنقده لآراء بعض المتطرفين منهم،

---

[1] المعتزلة : هم أصحاب واصل بن عطاء الغزَّال الذي اعتزل مجلس الحسن البصري ، ونشأت في أواخر العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي ، واعتمدت على العقل منهجاً لها في دراسة الأصول الاعتقادية ، وكان لرجال هذه المدرسة السبق في صياغة مشكلات علم الكلام ، ومعالجتها معالجة جادة ، وإضافة الكثير من المباحث الجديدة إلى موضوعاته . راجع : التعريفات للشريف الجرجاني ، ص٣٤٧ ، تحقيق / نصر الدين تونسي ، ط١ – شركة القدس للتجارة ، سنة ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م ، وأيضاً : المعجم الفلسفي لمراد وهبه ، ص٦٤٨ ، ط١ ، دار قباء للطباعة ، سنة ١٩٩٨ م .

[2] فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، لأبي القاسم البلخي ، تحقيق / فؤاد سيد ، ص٣٦٥ ، الدار الكويتية للنشر ، بدون تاريخ .

[3] الأعلام ، لخير الدين الزركلي ، ج٣ ص٢٧٣ ، ط١٣ – دار العلم للملايين ، سنة ١٩٩٨ م .

[4] المنية والأمل ؛ لابن المرتضي ، تحقيق / د . كامل عويضة ، ص١٧٤ ، ط المكتبة الأزهرية للتراث ، سنة ١٤٤٠هـ – ٢٠١٩ م .

[5] المصدر السابق ، ص١٧٥ .

أو التماس تأويلات لا تبعد كثيراً عن تأويلات أهل السنة ، ولعل الثقافة الفقهية لها أثر كبير في هذا الموقف .

ودرس القاضي أصول الفقه ودرَّسه وألف فيه كُتباً مطولة تُشرح وتُدرس ، كما درس التفسير وله فيه كتب عديدة ، وكان على دراية واسعة بالحديث ، فقد سَمِع من كبار المحدثين ، وانتقل إليهم ليأخذ منهم الحديث ، كما أنه لم يقصِّر في نقض الفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني .

ونستطيع أن نقول أن القاضي كان مُلمّاً بشتى الثقافة الإسلامية المعروفة أنذاك دراسة وتدريساً وتأليفاً، كما كان أثره واضحاً على جميع من درس العقائد والتوحيد من بعده مؤيداً أو ناقداً. [1]

ج – أهم مؤلفاته :

كان للقاضي عبدالجبار مؤلفات كثيرة ومتنوعة ، حتى قيل إن له أربع مائة ألف ورقة مما صنَّف في كل فن ، ومن أهم مؤلفاته في الكلام ما يلي :

- المغني في أبواب التوحيد والعدل
- شرح الأصول الخمسة .
- المختصر في أصول الدين .
- المحيط بالتكاليف .
- الدواعي والصوارف .
- الخلاف والوفاق .
- تكلمة الجوامع .
- الخاطر في الكلام .
- شرح كشف الأغراض عن الأعراض .
- المسائل الواردة على أبي الحسن .

ومن أهم مؤلفات القاضي عبدالجبار في التفسير :

- التفسير الكبير .
- تنزيه القرآن عن المطاعن .
- متشابه القرآن .
- المحيط .

ومن أهم مؤلفاته في الحديث : الأمالي في الحديث .

ومن أهم مؤلفاته في أصول الفقه :

---

[1] مقدمة كتاب شرح الأصول الخمسة ، للقاضي عبدالجبار ، تحقيق / د . عبدالكريم عثمان ، ص١٦ ، ١٧ باختصار ، ط مكتبة الأسرة ، سنة ٢٠٠٩ م .

– الاختلاف في أصول الفقه . – النهاية والعمد .[1]

د – وفاته : لقد وُلي القاضي عبدالجبار القضاء بالري ومات بها سنة ٤١٥ هـ[2] .

ثانياً : التعريف بالإمام النسفي :

أ – اسمه ونسبه :

هو أبو المعين ، ميمون بن محمد بن محمد بن معتمد بن محمد بن مكحول بن الفضل المحولي النسفي[3]. ويكنىٰ النسفي بأبي المعين[4]، ويُلقب بعدة ألقاب مثل : الإمام الأجل ، وقامع الملحدين، وجامع الأصول، وسيف الحق[5] .

وولد الإمام النسفي سنة ٤١٨ هـ[6] وقيل إنه ولد سنة ٤٣٨ هـ ، وكان حنفياً في الفروع[7]

ب – منزلته العلمية :

لقد تبوأ النسفي منزلة علمية مرموقة بين الأحناف سواء أكان من ناحية الفقه وأصوله أم من ناحية العقيدة التي يسير عليها غالب الحنفية وهي عقيدة الماتريدية[8] ، ولا أدل علىٰ ذلك من الألقاب

---

[1] المنية والأمل ، لابن المرتضىٰ ص١٧٦ ، وراجع طبقات المعتزلة ، لأبي القاسم البلخي ص٣٦٨ وما بعدها .

[2] الأعلام ، للزركلي ج٣ ص٢٧٣ ، وراجع معجم الفلاسفة ، لجورج طرابيشي ص١٢٨ ، ط٣ دار الطليعة – بيروت ، سنة ٢٠٠٦ م .

[3] الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، لعبدالقادر بن محمد القرشي ج٢ ص١٨٩ ، ط مير محمد كتب خانة – بدون تاريخ .

[4] الأعلام للزركلي ج٣ ص٢٧٣ .

[5] الفوائد البهية في طبقات الحنفية ، لمحمد بن عبدالحي اللكنوي ص٢١٦ ، دار المعرفة – بيروت – بدون تاريخ.

[6] الأعلام للزركلي ج٧ ص٣٤١ .

[7] تاج التراجم في طبقات الحنفية ، لزيف الدين قاسم بن قطلوبغا ص٣٠٨ ، تحقيق / محمد رمضان يوسف ، ط ١ – دار القلم بدمشق ، سنة ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م .

[8] الماتريدية : تنسب المتريدية إلىٰ محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي (أبو منصور) الملقب بإمام الهدىٰ ، وهو رئيس أهل السنة من الحنفية ، وُلد في منتصف القرن الثالث الهجري ، ولم تذكر المصادر تاريخ مولده،

التي أطلقت عليه ، فهو سيف الحق ، قامح الملحدين ، وجامع الأصول ... إلخ ، فالقرن الخامس الهجري الذي عاش فيه الإمام النسفي كان حافلاً بالعمق الكلامي ، والفلسفي ، والصوفي، فإذا أضفنا إلى ذلك عقلية ناضجة ، متطلعة دائماً ، مُحبة للعلم ، نهمة في البحث عنه ، وهي عقلية أبي المعين النسفي خرجنا بنتيجة مؤداها أن تعمق النسفي في مؤلفاته لم ينشأ من فراغ ، وإنما نشأ من تصارع فكره مع فكر من عاصرهم ، ومن سبقوه ، ويتضح هذا جلياً في كتابه (تبصرة الأدلة في أصول الدين) حيث يعرض بأمانة كل آراء المخالفين ويشرحها ، ثم يرد على ما يوجه إليها من اعتراضات، ثم يأتي عليها مبيناً أدلته في اظهار الحق معتمداً على العقل ومستهدياً أولاً وآخراً بالنقل من القرآن والسنة [1] .

وأياً ما كان الأمر فإن الإمام النسفي يُعدُّ من أهم رجال المدرسة الماتريدية ؛ وذلك للأسباب التالية :

١ – هو صاحب فكر غزير ، وعلم وفير ، فهو يُمثل دُرَّة التاج الماتريدي ، ومؤلفاته هي واسطة العقد في المذهب الماتريدي .

٢ – إنه يمثل مرحلة النضج والاكتمال في الفكر الماتريدي ؛ حيث شرح ، وأضاف ، ونظر ، وناقش، وحلل الأفكار، وتعامل مع الجزئيات والكليات بعقلانية وموضوعية ، مع استرشاد واع وأمين للقرآن الكريم والسنة المطهرة[2] .

٣ – أنه جعل همه نُصرة مذهب أهل السنة والجماعة ونشره .

٤ – عمل على إبطال مذاهب الخصوم ، بالنقل والعقل .

وتوفي سنة ٣٣٣هـ – ٩١٤م ، ومن أهم مصنفاته (التوحيد ، وتأويلات أهل السنة والجماعة ، وبيان وهم المعتزلة...وغيرها) راجع : القُند في ذكر علماء سمرقند ، لنجم الدين النسفي ص٢١ ، تحقيق / يوسف الهادي ، ط١ – مؤسسة الطباعة والنشر – إيران ، سنة ١٩٩٩م ، وأعلام للزركلي ج٧ ص١٩ .

[1] مقدمة تبصرة الدلة ، لأبي المعين النسفي ، ج١ ص٢٢ ، تحقيق / أ . د / محمد الأنور عيسى – رحمه الله – ط١ – المكتبة الأزهرية للتراث ، سنة ٢٠١١ م .

[2] الجواهر المضية ، لعبدالقادر القرشي ج٢ ص١٩٠ ، وراجع : الفوائد البهية للكنوي ص٢١٦ .

٥ – اعتمد في مناقشاته على اللغة العربية الفصيحة ، مع التوسط في العبارة حتى يتمكن القارئ في فهمه .

٦ – ابتعد كل البُعد عن الاشتغال بالجدل[١] العقيم ، والأدلة الغامضة المشوشة للعقول [٢] .

ج – أهم مؤلفاته :

للإمام النسفي مؤلفات كثيرة من أهمها ما يلي :

- تبصرة الدلة في أصول الدين .
- التمهيد لقواعد التوحيد .
- بحر الكلام في أصول الدين .
- تصيُّد القواعد في علم العقائد .
- مناهج الأئمة في الفروع .
- الإفساد لخُدع أهل الإلحاد .
- إيضاح الحُجة في كون العقل حُجة .
- شرح الجامع الكبير .

د – وفاته : توفي الإمام النسفي عام ٥٠٨هـ – ١١١٥م . [٣]

---

[١] الجدل : هو المنازعة ، لا لإظهار الصواب ، بل لإلزام الخصم ، انظر : شرح الرشيدية ، لعبدالرشيد الجونغوري ص١٦ ، ط مكتبة الإيمان بالقاهرة ، سنة ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦ م ، تحقيق د / علي مصطفى الغرابي .

[٢] الأعلام للزركلي ج٧ ص٣٤١ ، وراجع معجم المؤلفين ، لعمر رضا كحالة ج١٣ ص٦٦ ، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون تاريخ .

[٣] تاج التراجم ، لابن قطلوبغا ص٣٠٨ ، والأعلام ، للزركلي ج ص٣٤١ .

المبحث الأول

الصفة بين المفهوم والدلالة

ويشتمل على ما يلي :

أولاً : مفهوم الصفة في القرآن الكريم .

ثانياً : مفهوم الصفة عند علماء اللغة العربية .

ثالثاً : مفهوم الصفة وبيان أقسامها عند القاضي عبدالجبار .

رابعاً : مفهوم الصفة وبيان أقسامها عند الإمام النسفي .

أولاً : مفهوم الصفة في القرآن الكريم :

وردت مادة الكلمة في القرآن الكريم في حوالي أربعة عشر موضعاً [1] مثل قوله تعالى : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [2] وقوله تعالى ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [3]

والوصف في القرآن الكريم : ذكر الشيء بِحِلْيته ونعته ، والصفة : الحالة التي عليها الشيء من حليته ونعته ، كالزِّنة التي هي قدر الشيء . [4]

والوصف قد يكون حقاً وباطلاً ، قال تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ [5] ، وتنبيهاً على كون ما يذكرونه كذباً ، وقوله تعالى ﴿ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [6] تنبيهٌ على أن أكثر صفاته ليس على حسب ما يعتقده كثير من الناس لم يُتصور عنه تمثيل وتشبيه ، وأنه يتعالى عما يقول الكفار ، ويُقال : اتَّصف الشيء في عين الناظر إذا احتمل الوصف . [7]

ومن خلال التتبع للآيات التي ذكرت لفظ (الصفة) في القرآن الكريم نجد أنها وردت بمعنى الحالة التي يكون عليها الإنسان من حق أو باطل ؛ لكنها لم تأتي بمعنى الوصف لذات الباري – سبحانه وتعالى – .

---

[1] راجع : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، أ/ محمد فؤاد عبدالباقي ص٨٣٢ ، ط دار الحديث بالقاهرة، سنة ١٤٣٩هـ – ٢٠١٨ م .

[2] سورة الأنعام ، الآية ١٣٩ .

[3] سورة الأنبياء ، الآية ١١٢ .

[4] المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ص٥٤٠ ، ط٣ – المكتبة التوفيقية سنة ٢٠١٣م .

[5] سورة النحل ، الآية ١١٦ .

[6] سورة الصافات ، الآية ١٨٠ .

[7] المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ص٥٤٠ .

ثانياً : مفهوم الصفة عند علماء اللغة :

يرىٰ علماء اللغة العربية أن الصفة بمعنىٰ النعت ، فهما مترادفان ، والصفة أو النعت هو الحالة التي يكون عليها الشيء ويتميز بها .

يقول ابن فارس [1] : " وصف : الواو والفاء أصل واحد ، وهو تحلية الشيء ، ووصفته أصفه وصفاً ، والصفة الأمارة اللازمة للشيء " [2]

ويقول الفيومي [3] : " و ص ف : وصفته وصفاً ، من باب وَعَدَ : نعته بما فيه ، والصفة إنما هي بالحال المتنقلة ، والنعت بما كان في خَلْق أو خُلق ، والصفة من الوصف مثل العِدَةِ من الوَعْدِ ، والجمع صفات " [4]

وفي المعجم الوسيط : " الصفة هي الحالة التي يكون عليها الشيء ، من حليته ونعته كالسواد والبياض ، والعلم والجهل " [5]

---

[1] ابن فارس : هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي ، من ائمة اللغة ، جماع التأويل في تفسير القرآن الكريم ، وأوجز السير لخير البشر ، وذم الخطأ في الشعر ، والحماسة المحدثة وغيرها ، راجع الأعلام ، للزركلي ج١ ص١٩٣

[2] معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ج٦ ص١١٥ ، تحقيق أ / عبدالسلام هارون ، ط اتحاد الكتاب العربي – بدون تاريخ ، وراجع القاموس المحيط ، للفيروز آبادي ص١٧٥٨ ، ط١ – دار الحديث بالقاهرة ، سنة ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م .

[3] الفيومي : هو أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي المُقري ، الشافعي المصري الحموي ، ولد ونشأ بالفيوم بمصر ، ورحل إلىٰ (حُماة) بسوريا فقطنها وتوفىٰ بها سنة ٧٧٠هـ – ١٣٦٨م ، ومن أهم مصنفاته : (المصباح المنير ، ونثر الجُمان في تراجم الأعيان ، وديوان خُطب ، وشرح عروض ابن الحاجب ، ومختصر معالم التنزيل للبغوي ... وغيرها) راجع الأعلام ، للزركلي ص٢٢٤ ، وكشف الظنون ، لحاجي خليفة ج٢ ص١٧١٠ .

[4] المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، للفيومي ص٤١٦ باختصار ، ط دار الحديث بالقاهرة سنة ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨م ، وراجع مختار الصحاح ، لأحمد بن أبي بكر الرازي ص٣٨٩ ، ط دار الحديث بالقاهرة سنة ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م

[5] المعجم الوسيط ، لمجمع اللغة العربية ، ج٢ ص١٠٣٦ ، تحقيق / أحمد الزيات وآخرون ، ط – دار الدعوة – بدون تاريخ ، وراجع المعجم الوجيز ، لمجمع اللغة العربية ص٦٧١ ، ط وزارة التربية والتعليم سنة ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٣م .

ومن خلال التعريفات لكلمة (الصفة) عند علماء اللغة العربية يتبين لنا أنَّ عُلماء اللغة العربية جعلوا الصفة بمعنى الحال [1] ؛ وذلك لكي يشمل البياض والسواد ، والعلم والجهل ، وهذا يختص بالمخلوقين فقط دون غيرهم ؛ ولكن ذلك لا يليق بذات الباري – سبحانه وتعالى – ، فلابُدَّ أن يوصف بصفات تناسب الذات العلية ؛ لأنه ليس جسماً ولا مُركباً ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى، فإن عُلماء اللغة العربية اعتبروا النقائص كالجهل ،صفات للمخلوقين ، والله تعالى مُنزه عن كل نقص، ولا يتشابه مع المخلوقات في المحاسن والعيوب .

---

[1] الحال : عند علماء اللغة : يعني التحول ، والتغير والانقلاب ، وعدم الرسوخ والثبات .

يقول الراغب الأصفهاني : " حول : أصل الحول تغير الشيء وانفصاله من غيره ، وقيل : حَالَ الشيء يَحُولُ حُؤُولا واستحال : تهيأ لأن يحول ، والحال في تعارف أهل المنطق يطلق على كيفية سريعة الزوال نحو حرارة ، وبرودة ويبوسة، ورطوبة عارضة " انظر: المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني، ص١٤٢ ، ٤٣ ، وراجع القاموس المحيط، للفيروز آبادي ص٤٢٤ ، ٤٢٥ ، وأيضاً مختار الصحاح ، لأبي بكر الرازي ص٩٦ .

أما الحال في اصطلاح المتكلمين :

أ – عند المعتزلة : هو الذي يثبت للذات مقصوراً عليه .

شرح التعريف : يثبت : يخرج النفي ، الذات : قيد يخرج نفس الذات ؛ لأنه لا يثبت بغيره ، ومقصوراً عليه : قد يخرج الأشياء المنفصلة التي تُضاف إلى غيرها كالأفعال والآثار الصادرة عن العلل في غير محالها فإنها لا تكون أحوال. راجع الكامل في الاستقصاء ، لتقي الدين النجراني ص٢١٧ .

ب – الأحوال عند الأشاعرة : عبارة عن صفات إثباتية غير متصفة بالوجود ولا بالعدم ، وقد يُعبر عنها بما به الاتفاق والافتراق بين الذوات . انظر المبين للآمدي ، ص١٠٩ .

ويرى الجرجاني أن الحال نوعان :

الحال المؤكدة : وهي التي لا ينفك ذو الحال عنها ما دام موجوداً غالباً .

الحال المنتقلة : وهي بخلاف الأولى ، أي يُمكن انفكاك ذو الحال عنها . راجع التعريفات، للجرجاني ، ص١٣٩.

جـ – الحال عند الماتريدية : عبارة عن صفة لموجودات ليست بموجودة ولا معدومة . انظر المعارف شرح الصحائف، لشمس الدين السمرقندي ، جـ١ ص ٤٧٤ .

ثالثاً : مفهوم الصفة وبيان أقسامها عند القاضي عبدالجبار :

يرىٰ القاضي عبدالجبار أن الصفة : هي مجرد وصف الواصف ، وتعني نفي الضد [1] ، وهذا يتفق مع توجه المعتزلة بوجه عام في ضرورة إثبات التنزيهات .

وقد قسم القاضي عبدالجبار الصفات إلىٰ أربعة أقسام :

١ – صفات يستحق الباري – سبحانه وتعالىٰ الاتصاف بها : وهي الصفات التي بها يُخالف مخالفة، ويوافق موافقة لو كان له موافق ، تعالىٰ الله عن ذلك ؛ وذلك مثل كونه قادراً ، عالماً ، حياً ... إلخ .

٢ – صفات الذات : وهي الصفات التي تجب له تعالىٰ في كل وقت ، ولا يجوز خروجه عنها بحال من الأحوال ، مثل القدرة ، والعلم ، والحياة .

٣ – صفات يستحيل اتصافه بها في كل وقت: وهي ما يُضاد كونه عالماً، حياً ككونه عاجزاً، جاهلاً.

٤ – صفات يستحقها الله تعالىٰ في وقت دون وقت : نحو كونه (مُدركاً) فإن ذلك مشروط بوجود المدرك، ونحو كونه مُريداً وكارهاً فإن ذلك لا يستند إلىٰ الإرادة والكراهة الحادثتين الموجودتين لا في محل . [2]

---

[1] المغني في أبواب التوحيد والعدل ، للقاضي عبدالجبار ج٥ ص١٦٠ ، تحقيق د/ محمود الخضيري وآخرون ، ط مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي ، سنة ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م .

[2] شرح الأصول الخمسة ، للقاضي عبدالجبار ص١٢٩ – ١٣٠ باختصار ، وراجع المحيط بالتكليف ، للقاضي عبدالجبار ص١٠٨ ، ١٠٩ ، تحقيق / عمر السيد عزمي ، مراجعة د/ أحمد فؤاد الأهواني ، ط الدار المصرية للتأليف والنشر .

رابعاً : مفهوم الصفة وبيان أقسامها عند الإمام النسفي :

يرى الإمام النسفي أن الصفة : هي معنى حقيقي ثابت للذات ، وليس مجازياً ، وأنها ليست مجرد وصف الواصف ، أو مجرد نفي الضد عنه ، " فإذا عُرف أنه تعالى حي عالم ، قادر ، سميع ، بصير، نقول : إنه يجوز أن يوصف بها فنقول : هو حي ، قادر ، سميع ، بصير "[1]

ويقول أيضاً : " لا ريب أن هذه الألفاظ من قبيل الألفاظ المشتقة عن المعاني ، فإذا أطلقت على الذات يراد بها إثبات ما هو مأخذ الاشتقاق، لا إثبات الذات فحسب كما في اسم المتكلم والمتحرك والساكن وغيرها " [2]

وعلي هذا فالصفة عند الإمام النسفي معنى حقيقي قائم بالذات الإلهية وينفي الاشتراك ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن القاضي عبدالجبار والإمام النسفي كلاهما يُثبت صفات للباري – سبحانه وتعالى – ، ولكن الخلاف بينهما حول فهم كل منهما لمعنى الصفة ومفهومها حسب أصول كلٍّ منهما .

هذا بالإضافة إلى أن القاضي عبدالجبار قال بنفي الضد للصفة ، أما الإمام النسفي فقد أثبت المعنى الحقيقي للصفة؛ وذلك لأن الصفة إذا لم يكن لها معنى حقيقي لكانت الذات الإلهية مجردة من الصفات .

أقسام الصفات عند الإمام النسفي :

١ –صفات الذات: كالحياة ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والعلم ، والكلام ، والمشيئة ، والإرادة .

٢ – صفات الفعل : كالتخليق والترزيق ، والإفضال ، والإنعام ، والإحسان ، والرحمة ، والمغفرة ، والهداية ، والله تعالى بجميع صفاته وأسمائه واحد ، وبجميع صفاته وأسمائه قديم أزلي[3]،

---

[1] تبصرة الأدلة في أصول الدين ، للإمام النسفي ج١ ص٣٥٩ .

[2] المصدر السابق ص٣٧١ .

[3] القديم والأزلي : اختلف العلماء فيهما على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أن القديم هو الموجود الذي لا أول لوجوده ، وأما الأزلي فهو ما لا أول له سواء كان وجودياً أم عدمياً ، وعلى هذا الرأي فالقديم لا يُطلق إلا على الموجود ، والأزلي يُطلق على الموجود والمعدوم .

من غير تفصيل، وجميع صفات الذات والفعل قديمة أزلية [1] .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن القاضي عبدالجبار ، والإمام النسفي قد اختلفا في بيان القاعدة التي من خلالها يتم التفريق بين صفات الذات وصفات الفعل :

فيرى القاضي عبدالجبار أن ما يثبت ولا يجوز نفيه عن الله تعالى فهو من صفات الذات كالقدرة والعلم، فلا يُقال : لم يقدر على كذا ، أو لم يعلم بكذا ، وأما ما يقع فيه النفي والإثبات فهو من صفات الفعل فيقال : خُلق لفلان ولد ، ولم يُخلق لفلان ولد . [2]

أمَّا الإمام النسفي فيرى أن ما وُصف به الباري سبحانه وتعالى ويستحيل أن يوصف بضده فهو من صفات الذات كالقدرة والعلم ، وكل ما يجوز أن يُوصف به وبضده فهو من صفات الفعل كالرحمة والغضب. [3]

ويوضح الإمام النسفي في موضع آخر أن بيان الفرق بين صفات الذات وصفات الفعل ليس أمراً هاماً أو ضرورياً؛ لن صفات الذات وصفات الفعل عنده كلها أزلية. [4]

القول الثاني : أن القديم هو عبارة عن القائم بنفسه – بمعنى لا يحتاج إلى غيره ، والأزلي هو الذي لا أول لوجوده، والقديم بهذا المعنى لا يُطلق إلا على الله تعالى ؛ لأنه وحده واجب الوجود القائم بنفسه التي لا يحتاج إلى غيره. وأما الأزلي فهو ما لا أول لوجوده سواء كان قائماً بنفسه أم لا ، وسواء أكان وجودياً أم عدمياً ، والأزلي بهذا المعنى يُطلق على كل ما لا أول له .

القول الثالث : أن القديم والأزلي مترادفان يدل كل منهما على ما يدل عليه الآخر ، وهو كل ما لا أول له سواء كان وجودياً أم عدمياً ، وسواء كان قائماً بنفسه أم لا . انظر : شرح جديد على جوهرة التوحيد ، أ د / محمود عبدالحكيم عثمان ج١ ص١٢٦ ، ١٢٧ ، ط٢ سنة ٢٠١٧ – ٢٠١٨ م

[1] بحر الكلام في أصول الدين ، للإمام النسفي ، تحقيق د / عبدالله محمد عبدالله اسماعيل ص١٨٩ باختصار ، ط١ – المكتبة الأزهرية للتراث ، سنة ١٤٣٢هـ – ٢٠١١ م .

[2] راجع المحيط بالتكليف ، للقاضي عبدالجبار ص١٠٠ .

[3] راجع بحر الكلام ، للإمام النسفي ص١٨٩ .

[4] راجع تبصرة الدلة ، للإمام النسفي ج١ ص٤٩٧ .

وخلاصة القول في مسألة الصفات :

أن صفات الله تعالىٰ وكمالاته لا تتناهىٰ، والعقل البشري عاجز عن الإحاطة بها؛ وذلك لأمرين:

١ – أن العقول البشرية متناهية ، وكمالات الله غير متناهية ، ويمتنع أن يُحيط المتناهي بغير المتناهي .

٢ – أن العلم بالشيء علىٰ وجه الإحاطة نوع من استيلاء علىٰ المعلوم ، ألا ترىٰ أن من لم يكن عالماً بالشيء أو من كان عالماً به بوجه ما كانت علىٰ وجه بالنسبة إلىٰ ذلك المعلوم كالعاجز المقهور ، فإذا علمه وأحاط به صار كالمستولىٰ عليه والقاهر له ، فإذا ما عجز الخلق عن الإحاطة بصفاته تعالىٰ كانوا أبداً في ذُل القهر وعجز المعرفة، وكان الاستيلاء والقهر للحق وذلك هو الأحرىٰ بالخلق والحق.[1]

فنحن نصف الباري سبحانه وتعالىٰ بما وصف به نفسه في القرآن الكريم ، وفي السنة النبوية المطهرة، ولا سبيل للعقل البشري أن يُدرك حقيقة ذات الله تعالىٰ وصفاته ، فيجب علىٰ العقل البشري أن يقف عند ما أتىٰ به الوحي من صفات لله تعالىٰ ، ولا يتجاوز ذلك .

---

[1] راجع المطالب العالية من العلم الإلهي ، للإمام الفخر الرازي ، ضبط / محمد عبدالسلام شاهين ج١ ص٢٥، ط١ – دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، سنة ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

المبحث الثاني

مذهب القاضي عبدالجبار والإمام النسفي

في الكلام الإلهي

ويشتمل على ما يلي :

أولاً : مذهب القاضي عبدالجبار في كلام اللّه تعالى.

ثانياً : وسطية الإمام النسفي في كلام اللّه تعالى .

أولاً : مذهب القاضي عبدالجبار في كلام الله تعالى :

تُعدُّ صفة الكلام الإلهي من أشهر مباحث علم الكلام، وأكثرها نزاعاً بين الفرق الكلامية الكُبرىٰ، كما أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمسألة خلق القرآن التي نادىٰ بها المعتزلة، وأرادوا حمل الناس علىٰ اعتناق هذا المذهب بقوة السلطان وهيبته خاصة في عهد أمراء الدولة العباسية كالمأمون[1]، والمعتصم[2]. أما علماء أهل السنة فيرون أن الباري سبحانه وتعالىٰ له كلاماً نفسياً تدل عليه الحروف والأصوات.

أ – تعريف الكلام والمتكلم:

مفهوم الكلام في القرآن الكريم :

وردت مادة الكلمة في القرآن الكريم في أكثر من ثمانين موضعاً [3] بمعانٍ مختلفة، فالكلام في القرآن الكريم يقع علىٰ الألفاظ المنظومة وعلىٰ المعاني التي تحتها مجموعة [4]، ومن معاني الكلام في القرآن الكريم ما يلي:

١ – قوله تعالىٰ ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [5] قيل هي الأشياء التي امتحن الله بها إبراهيم عليه السلام كذبح ولده .

---

[1] المأمون : هو أبو العباس عبدالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي ابن أبي جعفر العباسي ، سابع خلفاء الدولة العباسية، ولد ببغداد سنة ١٧٠هـ – ٧٨٦م ، وتولىٰ الخلافة سنة ١٩٨هـ وتوفي غازياً سنة ٢١٨هـ – ٨٣٣م ودُفن بطرسوس، وقد شهد عصره ازدهاراً كبيراً في الناحية العلمية والفكرية في العصر العباسي الأول ؛ وذلك لأنه شارك فيها بنفسه . راجع الأعلام، للزركلي ج٤ ص١٤٢

[2] المعتصم: هو أبو اسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدي ، ثامن الخلفاء العباسيين ، ولد بمدينة بغداد سنة ١٧٩هـ – ٧٩٦م ، وتولىٰ الخلافة سنة ٢١٨هـ وتوفي بمدينة سامراء سنة ٢٢٢هـ – ٨٤٢م ، وكان في عهد أخيه المأمون والياً علىٰ الشام ومصر ، وكان المأمون يميل إليه لشجاعته فولاه عهده ، وكان يملك قوة بدنية وشجاعة مميزة ، وهو أول من أضاف اسم الله تعالىٰ إلىٰ اسمه فقيل (المعتصم بالله) . راجع الأعلام ، للزركلي ج٧ ص١٢٧

[3] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، أ/ محمد فؤاد عبدالباقي ، ص٧١٦ ، ٧١٧ .

[4] المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ص٤٢١ .

[5] سورة البقرة ، الآية ١٢٤ .

٢ – قوله تعالىٰ ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ [١] فالمراد بالكلمة في الآية هي كلمة التوحيد ، وقيل كتاب الله ، وقيل عيسىٰ عليه السلام .

٣ – قوله تعالىٰ ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [٢] فالكلمة هنا هي العقاب .

٤ – قوله تعالىٰ ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ [٣] فكلمات الله هنا هي أحكامه التي حكم بها وبيَّن أنه شرع لعباده ما فيه بلاغ . [٤]

مفهوم الكلام عند علماء اللغة :

يرىٰ علماء اللغة العربية أن الكلام هو القول ، أو ما كان مكتفياً بنفسه ، والكلمة : اللفظة والقصيدة والجمع : كَلِمٌ [٥] ، والكلام في أصل اللغة عبارة عن أصوات متتابعة لمعنىٰ مفهوم ، وفي اصطلاح النحاة : الجملة المركبة المفيدة [٦] والكلام اسم جنس يقع علىٰ القليل والكثير ، والكَلِمُ لا يكون أقل من ثلاث كلمات ؛ لأنه جمع . [٧]

□

---

[١] سورة آل عمران ، الآية ٣٩ .

[٢] سورة الزمر ، الآية ٧١ .

[٣] سورة الكهف ، الآية ٢٧ .

[٤] المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ص٤٢٢ .

[٥] القاموس المحيط ، للفيروز آبادي ص١٤٣١ ، وراجع معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ج٥ ص١٣١ .

[٦] المصباح المنير ، للفيومي ص٣٣٦ ، وراجع المعجم الوجيز ، لمجمع اللغة العربية ص٥٤٠ .

[٧] مختار الصحاح ، لأبي بكر الرازي ص٣١٣ .

مفهوم الكلام والمتكلم عند القاضي عبدالجبار :

مفهوم الكلام :

يرىٰ القاضي عبدالجبار أن الكلام هو عبارة عن الحروف المعقولة المنظومة، والأصوات المقطعة بحيث يكون من حرفين فصاعداً .

يقول القاضي عبدالجبار : " حقيقة الكلام : أنه الحروف المنظومة والأصوات المقطعة ، إلا أن هذا لا يصح إيراده علىٰ طريق التحديد ؛ لأن الحروف المنظومة هي الأصوات المقطعة ، والأصوات المقطعة هي الحروف المنظومة ، فالأولىٰ أن نقول في حده : هو ما انتظم من حرفين فصاعداً أو ما له نظام من الحروف مخصوص "[1]

ويشترط القاضي عبدالجبار في الحروف أن تكون منظومة ؛ لأنه إذا تكلم أحدنا بحرف ثم انقطع عنه، ثم أتىٰ بالحرف الذي يليه بعد زمان لم يكن كلاماً ، فيقول :" يجب أن يتقدم لنا العلم بما نريد تسميته بأنه كلام، والذي عقلناه في ذلك هو الحروف التي تنتظم ، فالحروف هي معقولة ونظامها معقول؛ لأنه إذا تكلم أحدنا في هذا الوقت بحرف ثم انقطع عنه الحرف الثاني فأتىٰ به بعد زمان لم يُعد ما فعله كلاماً، فما جرىٰ هذا المجرىٰ هو الذي نعرفه كلاماً ونسميه كذلك ، وعلىٰ هذا لو نطق بحرف واحد فقط لم يُعدُّ مُتكلماً ، ولا عُدَّ ما فعله كلاماً " [2]

مفهوم المتكلم :

يرىٰ القاضي عبدالجبار أن المتكلم هو فاعل الكلام المُوجِد له ، وليس المتكلم من اتصف بالكلام أو من قام به الكلام، وعلىٰ هذا فالله تعالىٰ عند القاضي عبدالجبار لم يتصف بصفة تقوم به تسمىٰ الكلام؛ ولكن الله تعالىٰ عنده متكلم بمعنىٰ أنه أحدث الكلام ، وأوجده ، أو خلقه حسب قصده وإرادته .

---

[1] شرح الأصول الخمسة ، للقاضي عبدالجبار ص٥٤٩ ، وراجع المغني ، له أيضاً ج٧ ص٦ .

[2] المحيط بالتكليف ، للقاضي عبدالجبار ص٣٠٦ .

يقول القاضي عبدالجبار : " المتكلم هو فاعل الكلام ، والذي يدل على صحة ذلك هو أن أهل اللغة لما اعتقدوا تعلق الكلام بفاعله سموه مُتكلماً ، ومتى لم يعتقدوا ذلك فيه لم يسموه به ، وعلى هذا فإنهم أضافوا كلام المصروع إلى الجني ، فقالوا : إن الجني يتكلم على لسانه ، لما رأوا أن ذلك الكلام لا يتعلق به تعلق الفعل بفاعله ، فلو جاز أن يُقال في المتكلم : إنه ليس هو فاعل الكلام لجاز مثله في الشاتم، والضارب ، والكاسر ، وغير ذلك " [1]

ويقول في موضع آخر: " إن الكلام فعل من أفعاله تعالى، يحدثه ويخلقه في الأجسام إذا أراد مُخاطبة الخلق بالأمر والنهي، والوعد والوعيد والزجر والترغيب " [2]

أمَّا بالنسبة لوقوع الكلام من جهة المتكلم حسب قصده وإرادته فيقول القاضي عبدالجبار : " حقيقة المتكلم أنه وجد الكلام من جهته ، وبحسب قصده وإرادته ، وأهل اللغة متى علموا وقوع الكلام بحسب قصد زيد ، وإرادته ودواعيه [3] ، وصفوه بأنه متكلم ، ومتى لم يعلموا ذلك من حاله لم يصفوه به، فيجب أن يكون وصفهم له بأنه متكلم ، يُفيد أنه فعل الكلام " [4]

ويُلاحظ على تعريف علماء اللغة للكلام وكذلك تعريف القاضي عبدالجبار أنها تقتصر على الكلام اللفظي المركب من الحروف والأصوات، دون ذكر أي شيء يتعلق بالكلام النفسي .

---

[1] شرح الأصول الخمسة ، للقاضي عبدالجبار ص٥٣٦ .

[2] المختصر في أصول الدين ، للقاضي عبدالجبار ص٣٣٩ .

[3] الدواعي : جمع داعي وهو أن الإنسان إذا علم أو ظن أو اعتقد أن له في الفعل الفلاني مصلحة راجحة ، فعند حصول هذه الثلاثة يحصل في قلبه ميل جازم إلى الفعل ، فإن كانت أعضاؤه سليمة فعند حصول ذلك الميل في قلبه يصدر عنه ذلك الفعل . راجع المطالب العالية من العلم الإلهي ، لفخر الدين الرازي ج٣ ص٥ ، ط١ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان سنة ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م .

[4] المغني ، للقاضي عبدالجبار ج٧ ص٤٨ .

ب – رأي القاضي عبدالجبار في كلام الله تعالى بوجه عام :

تحرير محل النزاع :

قبل أن نتحدث عن مذهب القاضي عبدالجبار في صفة الكلام الإلهي، تجدر الإشارة إلى بيان محل النزاع بين الطرفين: القاضي عبدالجبار، والإمام النسفي – فنقول:

لا خلاف بين الرجلين في أن الله تعالى متكلم، وإنما وقع النزاع حول معنى الكلام

يقول الإمام النسفي: "لا خلاف في أن الله تعالى متكلم، وإنما الخلاف في معنى الكلام "[1] وعلى هذا فقد اتفق المتكلمون على أن الله تعالى متكلم، وأن القرآن الكريم كلامه [2]

أما عن مذهب القاضي عبدالجبار فهو يرى: أن كلام الله تعالى هو الحروف والأصوات وأن الله تعالى خلقها في غيره، وأن هذا الكلام مُحدث ، مخلوق ، قائم بغيره ، وليس كلاماً أزلياً ، وأن القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية كلها حادثة ؛ وذلك لأن كلام الله تعالى فعل مخلوق له ، أما الكلام بمعنى القائم بالنفس فقد أنكره كذلك .

أما بالنسبة لحدوث الكلام الإلهي فيقول القاضي عبدالجبار :

" القرآن وسائر كلام الله تعالى اختلف الناس ذلك والذي يذهب إليه شيوخنا أن كلام الله عز وجل من جنس الكلام المعقول في الشاهد، وهو حروف منظومة ، وأصوات مقطعة ، وهو عرض يخلقه الله سبحانه في الأجسام على وجه يُسمع ، ويُفهم معناه ، ويؤدي المَلك ذلك إلى الأنبياء بحسب ما يأمر به عز وجل ويعلمه صلاحاً ، ويشتمل على الأمر ، والنهي ، والخبر ، وسائر الأقسام، ككلام العباد ولا يصح عندهم إثبات كلام قديم مخالف لكلامنا "[3] .

---

[1] التمهيد لقواعد التوحيد ، للإمام النسفي ص١٧٣ .

[2] الفائق في أصول الدين ، لمحمود الملاحمي الخوارزمي ، تحقيق د / فيصل به برعون ، ص٢٣٠ ، ط دار والوثائق القومية سنة ١٤٣٧هـ – ٢٠١٦ م .

[3] راجع المختصر في أصول الدين ، للقاضي عبدالجبار ص٣٣٩ ، والمغني ، له أيضاً ج٧ ص٣ .

أما بالنسبة لإنكار القاضي عبدالجبار للكلام النفسي القائم بالذات الإلهية فيقول : " من ادعى كلاماً نفسياً فقد ادعى إثبات معنى لا سبيل إلى معرفته باضطرار ، ولا بدليل ، فوجب نفيه"[1]

ويقول أيضاً : " فإذا صح كلامه تعالى من جنس هذا الكلام فتجب استحالة قِدمه ؛ لأن كل مثلين استحال في أحدهما أن يكون قديماً فيجب أن يستحيل في الآخر ؛ لأن من حق القديم أن يكون قديماً لنفسه ، فإذا ثبت كون كلامه من جنس كلامنا وجب القضاء بحدوثه "[2]

وخلاصة القول في هذا الأمر :

أن كلام الله تعالى عند القاضي عبدالجبار حادث ومخلوق ؛ لأنه لا يعرف غير الكلام المعروف المركب من أصوات وحروف ، وإذا كانت الأصوات والحروف حادثة فكلام الله تعالى حادث ، وهذا الكلام فعل مخلوق للباري سبحانه وتعالى ، والقول بقِدم الكلام يلزم[3] منه القول بقِدم الحادث وهو محال ، أما الكلام النفسي القائم بالذات فلا وجود له عند القاضي عبدالجبار .

لماذا قال القاضي عبدالجبار بحدوث الكلام الإلهي ؟ يرجع ذلك إلى أسباب عديدة أهمها ما يلي :

١ – أن أهم ما يميز ذات الباري سبحانه وتعالى عن غيره من الموجودات هو (القِدم) ولا يجوز أن تكون المخالقة بينه وبين ما سواه واقعة بكونه ذاتاً ؛ لأن غيره من الذوات يشاركه في ذلك، كما لا يجوز أن تكون المخالقة واقعة بصفات الأفعال مثل كونه تعالى رازقاً ، أو كونه مُحسناً ؛ لأن المخالقة لغيره كانت موجودة في الأزل من غير أن يوجد من يُحسن إليهم أو يرزقهم ، فلم يبق إلا أن تكون المخالقة بصفة من صفات الذات، وهي وجوب وجوده تعالى ، والقِدم لا يعني إلا وجوب الوجود، فيجب أن يكون كلامه حادثاً .[4]

---

[1] المغنى ، للقاضي عبدالجبار ج٧ ص١٥ .

[2] المغني ، للقاضي عبدالجبار ج٧ ص٨٤ .

[3] اللازم : هو ما يلزم الشيء ، ولا يُفارقه من غير أن يكون داخلاً في مفهومه وحقيقته . انظر معيار العلم ، لأبي حامد الغزالي ، تحقيق د/ سليمان دنيا ص٣٧٤ ، ط٢ – دار المعارف بالقاهرة – بدون تاريخ .

[4] شرح الأصول الخمسة ، للقاضي عبدالجبار ص١٩٦ ، ١٩٧ باختصار .

٢ – إن الكلام من أعظم النعم التي أنعم الله تعالىٰ به علىٰ عباده؛ لأن به يكون الإفهام ولا يُمكن أن يقوم غيره في هذا المقام، وكلام الله تعالىٰ المنزل علىٰ رسوله أدخل في باب النعمة؛ لأن به يُعرف الحلال والحرام، وإليه يُرجع في الشرائع والأحكام ، فإذا كان قديماً لا يصح الانتفاع به فيجب أن يكون حادثاً . [١]

٣ – أن رأي القاضي عبدالجبار في الكلام الإلهي ناشئ عن قوله العام في الصفات وأنها عين الذات وليست زائدة علىٰ الذات [٢] ، والقول بإثبات ذات قديمة ، وصفات أزلية قديمة غير الذات يؤدي إلىٰ تعدد القدماء، ومن أثبت صفاتاً أزلية مع الذات الأزلية فقد وافق النصارىٰ في قولهم بالتثليث، بل زاد عليهم [٣] .

---

[١] المصدر السابق ص٥٣٠ ، ٥٣١ باختصار .

[٢] ذهب المعتزلة عامة والقاضي عبدالجبار خاصة إلىٰ القول بأن صفات المعاني هي عين ذات الباري سبحانه وتعالىٰ وليست زائدة علىٰ ذاته ، فالله تعالىٰ عالم بذاته ، وقادر بذاته ، وحي بذاته ، وهكذا سائر صفات المعاني .

يقول القاضي عبدالجبار : " إنه تعالىٰ يستحق هذه الصفات الأربع ، التي هي كونه قادراً ، عالماً ، حياً ، موجوداً لذاته " شرح الأصول الخمسة ص١٨٢ .

ويقول ركن الدين الملاحمي الخوارزمي : " اعلم أننا نعني بقولنا : إنه تعالىٰ قادر ، عالم، حي لذاته ، هو أن ذاته ذات متميزة بنفسها عن سائر الذوات ، ولا حاجة بنا أن نُثبت أمراً زائداً علىٰ ذاته " راجع الفائق في أصول الدين، لمحمود الملاحمي ، تحقيق د/ فيصل بدير عون ص ٨٠

وكان هدف المعتزلة من ذلك هو الدفاع عن الإسلام ضد خصومه من المجوس وغيرهم الذين جعلوا للعالم إلهين قدمين، وتنزيه الباري سبحانه وتعالىٰ عن أن يكون مركباً من ذات وصفات ، ونفي فكرة الأقانيم الثلاثة التي قال بها النصارىٰ ، وعلىٰ هذا فكان الهدف عند المعتزلة هو التنزيه البحت .

راجع في ذلك: – الملل والنحل ،للشهرستاني، تحقيق/ محمد فريد ج١ ص٦٧ ، ط المكتبة التوفيقية سنة ٢٠٠٣م .

– فلسفة المعتزلة ، لألبير نصري نادر ج١ ص٣٧ ، ٣٨ ، ط دار نشر الثقافة بالإسكندرية – بدون تاريخ =

= – ابن رشد وفلسفته ، أ د/ عبدالمعطي بيومي ، ص١٠٨ – بدون تاريخ .

[٣] المغني ، للقاضي عبدالجبار ج٧ ص١٣ وما بعدها .

وبناءً على ذلك : فإن كلام الله تعالى عند القاضي عبدالجبار يستحيل أن يكون صفة أزلية قديمة قائمة بذات الباري سبحانه وتعالى ، بل هو حادث ، ولا يقوم الحادث بالقديم ؛ لأن الله ليس محلاً للحوادث .

يقول القاضي عبدالجبار : " إن هذا الكلام الذي أثبتوه – يقصد أهل السنة – قائماً بذات الباري إما أن يثبتوه حالاً في الله تعالى ، فالله تعالى يستحيل أن يكون محلاً ؛ لأن المحل متحيز ، والمتحيز مُحدث ، وقد ثبت قِدمه "[1] .

أدلة القاضي عبدالجبار على مذهبه ومناقشتها :

١ – الأدلة العقلية :

الدليل الأول : لو كان كلام الباري سبحانه وتعالى أزلياً لكان متنوعاً في الأزل ، ومن المعلوم أن وجود الأمر والخبر في الأزل ، ولا مأمور ولا سامع سفه يتنزه عنه الباري سبحانه وتعالى[2]

ويجاب على ذلك بما يلي :

– أن السفه والعبث إنما يلزم لو كان أمرُ الله تعالى للمعدوم حال عدمه ، أما لو أمره على تقدير وجوده بأن يكون طلباً للفعل ممن يكون فلا سفه فيه ولا عبث بل هو حكمة .

يقول الإمام النسفي : " هذه شُبهة واهية ، صادرة عن الجهل بالحقائق ؛ وذلك لأن الأمر والنهي للمعدوم ليجب عليه الإقدام على المأمور به ، والانتهاء عن المنهي عنه للحال سفه وباطل .

فأما الأمر له ليجب عليه الإقدام به عند وجوده ، والنهي له ليجب عليه الانتهاء عند وجوده، فهو حِكمة، وليس بسفه "[3]

---

[1] شرح الأصول الخمسة ، للقاضي عبدالجبار ص٥٣٩ .

[2] المغني ، للقاضي عبدالجبار ج٧ ص٩٣ .

[3] التمهيد لقواعد التوحيد ، للإمام النسفي ص٢٩ .

فالمعدوم يجوز أن يُؤمر عند الإمام النسفي : " على معنى أن الله تعالى قال للأشياء قبل أن تكون: كوني في وقت كذا وكذا "[1]

الدليل الثاني: أن القرآن ينسخ بعضه بعضاً ، والله تعالى أنزله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، وهذا لا يُتصور إلا فيما هو مخلوق ، كما أن القرآن يُكتب ، ويُقرأ ، ويُحفظ ، ويُسمع ، ويُنقل من موضع إلى موضع، ويُمحى بعد ما كُتب، وهذا كله من صفات المخلوقين[2]

ويجاب على ذلك بما يلي :

– أن النسخ واقع على الحكم ، وهو الحكم الذي شرعه الله تعالى بكلامه لا على نفس الكلام، والله تعالى يحكم ما يشاء في كل زمان ، وقد يقع النسخ على نفس المنظوم ، وهو دفع حفظ التلاوة عن قلوب العباد، أما كلام الله تعالى فلا يرد عليه النسخ ؛ لأنه يستحيل ذلك .

– أما الإنزال من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ومن السماء إلى الأرض ، فذاك أيضاً يتناول هذا المنظوم ، قال تعالى ﴿ حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾[3] فالله تعالى جعل الكتاب مُنزلاً، والكتاب اسم لهذا المنظوم ؛ لأن الكتاب اسم للمكتوب ، والمنظوم هو المكتوب ، وقد يُطلق اسم الإنزال على كلام الله تعالى بإنزال هذا المنظوم الدال عليه ، يُقال : أنزل فلان الوزير كلامَ الأميرِ من الحصن ؛ إذا أنزل كتابه[4] .

---

[1] بحر الكلام في أصول الدين ، للإمام النسفي ص٢١١ .

[2] راجع المحيط بالتكليف ، للقاضي عبدالجبار ص٣٢٤ ، ٣٢٥ باختصار .

[3] سورة الدخان ، الآيات ١ – ٣ .

[4] راجع أصول الدين ، لأبي اليسر البزدوي ، تحقيق / هانز بيترلنس ص٦٩ ، ط المكتبة الأزهرية للتراث سنة ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .

ومعنى الإنزال أن جبريل عليه السلام أدرك كلام الله تعالى ثم نزل إلى الأرض وأفهم النبي – صلى الله عليه وسلم – ما فهمه من غير نقل لذات الكلام لعدم انتقال الصفة [1] .

– إن الكتابة والحفظ والقراءة والسماع كل هذا يدل على المنظوم ، وهذا حقيقة وليس بمجاز [2]

٢ – الأدلة النقلية :

الدليل الأول: قوله تعالى ﴿ الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [3]

وجه الدلالة: أن هذه الآية تدل على حدوث كلام الله تعالى ؛ لأن الله تعالى بيَّن أن القرآن الكريم مُركب من هذه الأحرف المقطعة ، والقديم تعالى يستحيل عليه التركيب ، ووصف القرآن بأنه كتاب بمعنى أنه مجموع من عدة كتب متعددة ، فلا يكون قديماً ، ووصفه بأنه محكم ، والإحكام لا يكون إلا في الأفعال لا في الصفات ، ووصفه بأنه مفصل أحسن التفصيل في سوره وآياته ، وهذا الوصف لا يصح في القديم [4] .

ويُجاب على هذا بما يلي :

– إن كلام الله تعالى صفة قائمة بذاته ، ليست جنس الحروف والأصوات ، وهو صفة واحدة، وهو أمر بما أمر به ، ونهى عما نهى عنه ، وأخبر عما أخبر به ، وهو صفة أزلية [5] .

– إن كلام الله تعالى قائم بذاته ، وكذا كلام كُلِّ متكلم ، وهذه السورة التي لها نهاية وبداية وعدد وأبعاض ليست بكلام الله تعالى على الحقيقة ، بل هو منظوم نظمه الله تعالى ، وهو دال على كلام الله تعالى ، وكذا خُطبة كل خطيب ، ورسالة كل مرسل دال على كلامه وليس نفس كلامه[6] .

---

[1] إشارات المرام من عبارات الإمام ، لكمال الدين أحمد البياض ، تحقيق / يوسف عبدالرازق ص١٧٨ ، ط١ – مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٦٨ – ١٩٤٩م .

[2] أصول الدين ، للبزدوي ص٧٠ .

[3] سورة هود ، الآية ١ .

[4] راجع متشابه القرآن ، للقاضي عبدالجبار ، تحقيق / عدنان زرزور ص٢٤٤ ، ط دار التراث بالقاهرة – بدون تاريخ.

[5] تبصرة الأدلة ، لأبي المعين النسفي ج١ ص٤٦٥ ، ٤٦٦ .

[6] راجع أصول الدين ، للبزدوي ص٦٨ .

الدليل الثاني : قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾ [1]

وجه الدلالة : أن الذكر هو القرآن ، فوصفه بأنه محدث ، والمحدث هو المخلوق [2] .

ويجاب على هذا بما يلي :

- أن المراد من قوله تعالى ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحدث ﴾ عدة وجوه :

١ – يحتمل أن يكون الذكر هو الرسول – صلى الله عليه وسلم – على ما قال ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾[3] فيكون تأويله : ما يأتيهم من رسول مُحدث إلا استمعوه أي سمعوا قوله .

٢ – يحتمل أن يكون المراد منه ما يأتيهم من وعظ من النبي – صلى الله عليه وسلم – ؛ وهذا لأنهم ما كانوا يضحكون عن قراءة القرآن ، بل كانوا يعظمونه ويفخمون شأنه .

٣ – يحتمل من ذكر حديث العهد بهم ، لا أن يكون في نفسه حديثاً ، كمن له غلام فاشترى آخر قد يقول ادعوا غلامي الحديث وإن كان أكبر سناً من الأول ، على أن صرف هذه الآيات إلى هذه العبارات المحدثة ممكن ، فلم يبق للخصوم في محل النزاع دليل [4] .

- إن ظاهر الآية يدل على أن من الذكر ما ليس بمحدث ؛ لأنه لم يقل : (ما يأتيهم من ذكر إلا كان محدثاً) ، فثبت أن من الذكر ما هو قديم وليس بمحدث ، فيجب أن يكون كلام الله ، وعلى هذا فالآية تنصرف إلى المنظوم دون كلام الله تعالى [5] .

---

[1] سورة الأنبياء ، الآية ٢ .

[2] راجع متشابه القرآن ، للقاضي عبدالجبار ص٥٦٧ .

[3] سورة الطلاق ، الآيتان ١٠ ، ١١ .

[4] تبصرة الأدلة ، للإمام النسفي ج١ ص٤٨٣ .

[5] راجع أصول الدين ، للبزدوي ص٧٣ .

الدليل الثالث : قوله تعالىٰ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [1]

وجه الدلالة : أن الآية صريحة الدلالة في أن الله جعل القرآن ، والجعل يقتضي الحدوث – فكيف يكون قديماً ؟ [2]

ويُجاب علىٰ هذا بما يلي :

– أن معناه والله أعلم ، جعلنا العبارة منه بلسان العرب ، وأفهمنا المراد به أحكامه باللسان العربي .

وأهل اللغة قالوا: إذا تعدىٰ الجعل إلىٰ معقول واحد كان بمعنىٰ الفعل والخلق ، كقوله تعالىٰ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [3]

وإذا تعدىٰ الجعل إلىٰ مفعولين لا يكون بمعنىٰ الخلق ، بل يكون بمعنىٰ الحكم والتسمية ، قال تعالىٰ خبراً عن الكفرة ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ﴾ [4] ، والمراد منه التسمية لا التخليق ، وكذا في قوله تعالىٰ ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ [5] المراد منه التسمية لا التخليق ، وفي هذه الآية تتعدىٰ إلىٰ مفعولين . [6]

ج – رأي القاضي عبدالجبار في القرآن بوجه خاص :

ذهب القاضي عبدالجبار إلىٰ أن القرآن الكريم حادث ومخلوق، وليس بقديم ؛ لأن القول بقِدمه يلزم منه القول بتعدد القدماء .

يقول القائي عبدالجبار: " مذهبنا هو أن القرآن كلام الله تعالىٰ ووحيه ، وهو مخلوق مُحدث ، أنزله الله علىٰ نبيه ليكون علماً ودالاً علىٰ نبوته ، وجعله دلالة لنا علىٰ الأحكام ؛ لنرجع إليه في الحلال

---

[1] سورة الزخرف ، الآية ٣ .

[2] المغني في أبواب التوحيد والعدل ، للقاضي عبدالجبار ج٧ ص٩٤ .

[3] سورة الأنعام ، الآية ١ .

[4] سورة الزخرف ، الآية ١٩ .

[5] سورة الحجر ،الآية ٩١ .

[6] تبصرة الأدلة ، للإمام النسفي ج١ ص٤٨٢ ، ٤٨٣ .

والحرام، واستوجب منا بذلك الحمد والشكر والتحميد والتقديس ، وإذن هو الذي نسمعه اليوم ونتلوه، وإن لم يكن مُحدثاً من جهة الله تعالىٰ فهو مُضاف إليه علىٰ الحقيقة " [1]

ويقول في موضع آخر : " لا خلاف بين جميع أهل العدل في أن القرآن مخلوق مُحدث ، مفعول، لم يكن ثم كان، وأنه غير الله عز وجل ، وأنه أحدثه بحسب مصالح العباد ، وهو قادر علىٰ أمثاله، وأنه يوصف بأنه مُخبر به، وقائل، وآمر ، وناه من حيث فَعَلَه ، وكلهم يقول إنه عز وجل متكلم به " [2]

وخلاصة القول: أن القاضي عبدالجبار يرىٰ أن حقيقة الكلام حروف منظومة، وأصوات مقطعة ، وأن كلام الله تعالىٰ مخلوق مُحدث ، وإذا كان كلام الله مخلوقاً ومُحدثاً ، فالقرآن أيضاً مخلوق؛ لأنه كلامه تعالىٰ، وقد خلقه الله وأحدثه .

فالله تعالىٰ قد خلق الكلام في الأشياء، وبه يكون مُكلماً عباده ، ولا حقيقة للكلام النفسي عند القاضي عبدالجبار .

والحق أن القاضي عبدالجبار لا يُنكر أن الله متكلم ؛ ولكن كيف يمكن أن نّصِف الباري سبحانه وتعالىٰ بأنه متكلم بصفة ليست قائمة بذاته بل قائمة بغيره ؟ فإن العقل يقتضي أن الصفة تقوم بالموصوف ولا تقوم بغيره، هذا بالإضافة إلىٰ أن المتكلم هو من قام به الكلام كالمتحرك فهو من قامت به الحركة لا من قامت الحركة بغيره .

---

[1] شرح الأصول الخمسة ، للقاضي عبدالجبار ج٧ ص٥٢٢ .

[2] المغني في أبواب التوحيد والعدل ، للقاضي عبدالجبار ج٧ ص٣ .

ثانياً : وسطية الإمام النسفي في صفة الكلام الإلهي :

أ – تعريف الإمام النسفي للكلام الإلهي :

يرىٰ الإمام النسفي أن الكلام الإلهي عبارة عن : " صفة أزلية قائمة بذاته تعالىٰ ، ليست من جنس الحروف والأصوات، وهي صفة منافية للسكون والآفة ، والله متكلم بها ، وآمرٍ ناهٍ مُخبر ، وهذه العبارات دالة عليها، وتسمىٰ كلام الله تعالىٰ " [1]

ب – رأي الإمام النسفي في كلام الله تعالى :

يرىٰ الإمام النسفي أن الله تعالىٰ متكلم بكلام قديم علىٰ الحقيقة ، وكلامه سبحانه صفة أزلية قديمة قائمة بذاته تعالىٰ، وليس من الحروف المنظومة ، ولا الأصوات المتعاقبة ، بل هي أمر آخر وراء الحروف والكلمات، والله تعالىٰ متكلم بهذه الصفة القديمة ، وأما هذه الحروف فهي دلالات وأمارات تدل عليه " [2]

ومعنىٰ هذا أن الكلام النفسي عند الإمام النسفي قديم ، والمعاني المفهومة من القرآن الكريم قديمة فيكون قديماً أيضاً، هذا بالإضافة إلىٰ أن الكلام اللفظي يستحيل قيامه بذات الباري سبحانه وتعالىٰ ، فثبت أن القائم بذاته تعالىٰ هو الكلام النفسي، وهو ليس من جنس الحروف والأصوات ؛ لأنها أعراض حادثة .

وهنا يأتي سؤال مُفاده : لماذا قال الإمام النسفي بالكلام النفسي ؟

والجواب : قال الإمام النسفي بالكلام النفسي للأسباب التالية :

١ – أن القرآن الكريم كلام الله تعالىٰ وصفته ، والله تعالىٰ بجميع صفاته واحد وبجميع صفاته قديم، غير مُحدث ولا مخلوق بلا حرف، ولا صوت ، ولا مقاطع ، ولا مبادئ ، وقد أجمعت الأمة علىٰ ذلك قبل ظهور أهل البدع والأهواء ، كما أجمعت علىٰ أن القرآن الكريم كلام الله سبحانه وأنه ليس مخلوق [3] .

---

[1] التمهيد لقواعد التوحيد ، للإمام النسفي ص٢٧ .

[2] تبصرة الأدلة ، للإمام النسفي ج١ ص٤٣٥ .

[3] بحر الكلام في أصول الدين ، للإمام النسفي ص٢١٩ بتصرف يسير .

٢ – أن الكلام النفسي صفة ذات وليس صفة فعل ، وإنكار المعنى النفسي فيه تعطيل لصفة الكلام الإلهي[١]، وقد نص القرآن الكريم على أن الله تعالى متصف بالكلام في آيات كثيرة ، قال تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾[٢] فشهادة الله هي قول الله ؛ لأن الملائكة وأولي العلم شهدوا بهذه الشهادة ، وشهادتهم قولهم فكذلك شهادة الله تكون قوله [٣] .

كذلك قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [٤] وقوله تعالى ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ [٥] وغير ذلك الكثير من آيات القرآن الكريم .

٣ – أن كلام الله تعالى غير محدث ، ولا مخلوق ، ولا حرف ، ولا لفظ ، ولا صوت ، ولا آية، ولا سورة ، فاللفظ والحرف والصوت والكلمة والآية والسورة كل ذلك يرجع إلى قراءة القارئ ، وكلامه ليس بعربي، ولا سرياني، ولا عبراني؛ لأن هذه اللغات أوصاف اللفظ المركب من الأصوات والحروف، وهذه العبارات مخلوقة مُحدثة ، فيجب التفريق بين كلام الله وبين ما يدل عليه . [٦]

ج – أدلة الإمام النسفي على مذهبه :

استدل الإمام النسفي على قِدم الكلام الإلهي بأدلة نقلية وأخرى عقلية :

١ – الدليل النقلي :

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [٧]

---

[١] تبصرة الأدلة ، للإمام النسفي ج١ ص٤٨٤ .

[٢] سورة آل عمران ، الآية ١٨ .

[٣] تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد ، لأبي اسحاق الصفار ص٧١٣ ، تحقيق د / عبدالله إسماعيل ، ط المكتبة الأزهرية للتراث ، سنة ١٤٣٧هـ – ٢٠١٦ م

[٤] سورة المجادلة ، الآية ٨ .

[٥] سورة آل عمران ، الآية ١٥٤ .

[٦] التمهيد للإمام النسفي ص٢٨ بتصرف .

[٧] سورة النحل ، الآية ٤٠ .

وجه الدلالة: أن الله تعالىٰ أخبر أنه يُحدث المحدثات بخطاب (لكن) ولو كان هذا الخطاب مُحدثاً لأحدثه بخطاب آخر، وكذا الثاني والثالث إلىٰ غير نهاية ، وتعلق وجود العالم بما لا يتناهىٰ من الخطاب مما يدخل وجوده في حيز الممتنعات فثبت أن قوله (كن) ليس بمُحدث [1] .

وهذا معناه أن مصدر جميع المخلوقات هو أمر الله تعالىٰ الوارد في كلمة (كُن) ويلزم منه أن يكون كلام الله تعالىٰ قديماً وليس حادثاً ومخلوقاً، فلو كان كلام الله حادثاً يلزم منه صدور أوامر أخرىٰ عن الله تعالىٰ بكلام آخر فيلزم التسلسل [2] المحال .

٢ – الأدلة العقلية :

الدليل الأول : لو كان كلام الله تعالىٰ حادثاً لكان مستحيل البقاء إذ هو عرض [3] ، وإذا ثبت استحالة البقاء فما نزل من القرآن علىٰ النبي –صلىٰ الله عليه وسلم– يُعدم ؛ لاستحالة بقائه، فلم يبق اليوم لله تعالىٰ كلام، ولا أمر، ولا نهي، وبطلت الشرائع، وبقاء ما ثبت من الشرائع عندنا بأمر النبي – عليه السلام – ونهيه مع انعدام كلامه لكونه عرضاً ، إنما كان لأن أمره ونهيه كانا مظهرين لأمر الله تعالىٰ ونهيه دالين عليهما، وكان ذلك منه عليه السلام ثابتاً عن الله تعالىٰ علىٰ ما قال تعالىٰ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾[4] وقال ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[5] فبقي الحكم لبقاء أمر الله تعالىٰ ونهيه. [6]

---

[1] تبصرة الأدلة ، للإمام النسفي ج١ ص٤٤٢ .

[2] التسلسل : هو السير في الاكتسابات النظرية إلىٰ غير نهاية ، وهو فاسد ؛ لأنه يؤدي إلىٰ تحصيل علوم لا نهاية لها لكي تصل النفس إلىٰ اكتساب أي علم ، والنفس حادثة علىٰ التحقيق وتحصيل الحادث لما لا نهاية له محال . راجع تيسير القواعد المنطقية شرح الرسالة الشمسية ، أ د/ محمد شمس الدين إبراهيم ص١٣ ، ط٤ – مطبعة حسان ، سنة ١٤٠١هـ – ١٩٨١ م .

[3] العرض : هو الموجود القائم بمتحيز ، وقيل : هو ما كان صفة لغيره . راجع : المواقف ، لعضد الدين الإيجي بشرح الشريف الجرجاني ، ج١ ص٤٨٠ وما بعدها ، ط١ – دار الجيل – بيروت ، سنة ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .

[4] سورة النجم ، الآية ٣ .

[5] سورة الحشر ، الآية ٧ .

[6] تبصرة الأدلة ، للإمام النسفي ج١ ص٤٦١ ، ٤٦٢ .

وهذا معناه أن حدوث الكلام الإلهي يلزم منه انعدام ما نزل من القرآن وبطلان الشرائع ؛ لأن ذلك الكلام يكون عرضاً وليس صفة لذات الله تعالىٰ .

الدليل الثاني :

لو كان كلام الله تعالىٰ حادثاً مخلوقاً فلا يخلو الحال من ثلاثة وجوه :

الوجه الأول : إما أن يكون خلقه في ذات أخرىٰ ، علىٰ أن معنىٰ كونه متكلماً كونه موجداً لهذه الحروف والأصوات الدالة علىٰ المعاني في أجسام مخصوصة من ملك أو نبي .

الوجه الثاني : أن يكون خلقه في ذاته .

الوجه الثالث : أن يكون خلقه لا في محل ، وجميع الوجوه باطلة .

أما بطلان الأول : فلأنه لو كان مخلوقاً في غير ذاته كان المتكلم به تلك الذات وهو مُحال ؛ لاستحالة قيام الصفة بغير من هي له، ألا ترىٰ أن السواد والحُمرة صفتان يستحيل قيامهما بغير الشخص الأسود والأحمر .

أما بطلان الثاني : فلأنه لو كان حادثاً في ذاته لكان ذاته تعالىٰ محلاً للحوادث ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، فحينئذٍ يلزم مُشابهته للمخلوقين ، وهو باطل ؛ لأن ذاته تعالىٰ قديمة ، وأنه ليس كمثله شيء .

وأما بطلان الثالث : فلأن الكلام المحدث عرض ؛ لأنه من قبيل الصفات التي تتميز بها الذات عن ذات آخري، والعرض يستحيل بقاؤه بنفسه ؛ إذ لو بقىٰ يلزم قيام العرض بالعرض ، وهو مُحال ببديهة العقل ؛ إذ لم يقل أحد من العقلاء بوجود حركة أو سكون لا في محل [1] .

تعقيب :

من خلال عرضنا لمذهب القاضي عبدالجبار والإمام النسفي حول صفة الكلام الإلهي وأدلة كل منهما يظهر لنا بوضوح تام أن الخلاف بينهما يرجع إلىٰ مسألة الصفات بوجه عام ، فالقاضي

---

[1] غاية المرام في شرح بحر الكلام ، للحسن بن أبي بكر المقدسي ، تحقيق د / عبدالله محمد إسماعيل ، د / محمد السيد أحمد شحاته ص٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ط المكتبة الأزهرية للتراث ، سنة ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦ م .

عبدالجبار يرىٰ أن الصفات عين الذات ، بينما يرىٰ الإمام النسفي يرىٰ أن الصفات زائدة علىٰ الذات، هذا من جهة ، ومن جهة أخرىٰ فإن طبيعة الكلام الإلهي عند كلا الرجلين مختلفة :

فالقاضي عبدالجبار يفرق بين أمرين : أولهما الاتصاف بالكلام ، وثانيهما هو فعل الكلام ، أو خلقه وإيجاده، فالمتكلم عنده هو من فعل الكلام ، وليس من اتصف به ، وعلىٰ هذا فالكلام فعل من أفعال الله تعالىٰ ، وترتب علىٰ هذا القول إنكار القاضي للكلام النفسي .

أما الإمام النسفي : فالكلام الإلهي عنده عبارة عن صفة قديمة أزلية قائمة بذات الباري سبحانه وتعالىٰ، وهذا هو الكلام النفسي .

ومن هذا المنطلق يتضح لنا أن الخلاف ليس في إثبات الكلام ، وإنما في عموم الكلام هل هو لفظي أم نفسي ؟

والسبب في إنكار القاضي عبدالجبار للكلام النفسي هو قياسه كلام الله تعالىٰ علىٰ كلام الخلق (قياس الغائب علىٰ الشاهد) وهو باطل ؛ لأن الله تعالىٰ نفىٰ التشبيه عن ذاته ، وصفاته ، وأفعاله فقال تعالىٰ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1] فعلم الباري تعالىٰ ليس كعلمنا ، وأفعاله ليست كأفعالنا ، وكلامه ليس ككلامنا ؛ لأن كلامنا مؤلف من الأصوات والحروف ، وكلامه تعالىٰ ليس كذلك .

أما الإمام النسفي فقد اتخذ موقفاً وسطاً حيث يرىٰ أن كلام الله تعالىٰ مُشترك بين النفسي واللفظي، فهو لفظي قديم علىٰ اعتبار أنه صفة لله تعالىٰ .

وكذلك فهو لفظي حادث؛ لأنه يتكون من السور والآيات ومخلوق لله تعالىٰ وليس من كلام البشر.

---

[1] سورة الشورىٰ ، الآية ١١ .

الخاتمة :

بعد هذه الرحلة العلمية التي عشناها مع القاضي عبدالجبار والإمام النسفي حول صفة الكلام الإلهي، فإنه يطيب لي أن أُسجل أهم النتائج التي توصل إليها البحث :

١ – اتفق القاضي عبدالجبار والإمام النسفي على أن الله تعالى متكلم ، وإنما وقع الخلاف حول معنى الكلام هل هو نفسي أم لفظي ؟ فقال القاضي عبدالجبار بالكلام اللفظي ، وقال الإمام النسفي بالكلام النفسي .

٢ – إن السبب في إنكار القاضي عبدالجبار للكلام النفسي هو قياسه كلام الله تعالى على كلام الخلق (قياس الغائب على الشاهد) وهو قياس باطل عند الإمام النسفي .

٣ – اعتمد الإمام النسفي في تسمية الكلام النفسي كلاماً على ما جاء في القرآن الكريم مثل قوله تعالى ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ [١] وقوله تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ [٢]

٤ – إن المتكلم عند القاضي عبدالجبار ليس من اتصف بالكلام ، بل هو من فعل الكلام وأوجده، وعلى هذا فالكلام عنده فعل من أفعال الله تعالى .

٥ – يرى الإمام النسفي أن الكلام مشترك بين اللفظي والنفسي القديم ، فالكلام نفسي على اعتبار أنه صفة لله تعالى، والعبارات الدالة عليه مخلوقة لله تعالى ، ولفظي أيضاً ؛ لأنه مؤلف من السور والآيات .

---

[١] سورة آل عمران ، الآية ١٥٤ .

[٢] سورة آل عمران ، الآية ١٨ .

فهرس المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : المصادر والمراجع :

١ – ابن رشد وفلسفته ، د / عبدالمعطي محمد بيومي ، ط٢ ١٤١٨هـ – ١٩٩٧ م .

٢ – إشارات المرام من عبارات الإمام ، لكمال الدين أحمد البياض ، تحقيق / يوسف عبدالرازق ، ط١ – مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٦٨هـ – ١٩٤٩ م .

٣ – أصول الدين ، لأبي اليسر محمد البزدوي ، تحقيق / هانز بيتر لينس ، ضبط وتعليق د / أحمد حجازي السقا ، ط المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣ م .

٤ – الأعلام، لخير الدين الزركلي ، ط١٣ دار العلم للملايين – بيروت – لبنان ، ١٩٩٨م .

٥ – بحر الكلام في أصول الدين ، لأبي المعين النسفي ، تحقيق د / عبدالله محمد إسماعيل ، د / محمد السيد احمد شحاته ، ط١ – المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٤٣٢هـ – ١٩٩٢ م .

٦ – تاج التراجم في طبقات الحنفية ، لزين الدين قاسم بن قطلوبغا ، تحقيق / محمد خير رمضان يوسف ، ط١ – دار القلم – دمشق ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢ م .

٧ – تاريخ الجهمية والمعتزلة ، لجمال الدين القاسمي ، ط١ – مؤسسة الرسالة – بيروت ، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

٨ – تبصرة الأدلة في أصول الدين ، لأبي المعين النسفي ، تحقيق أ د / محمد الأنور حامد عيسى – رحمه الله – ط المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٤٣٧هـ – ٢٠١١ م .

٩ – التعريفات ، لعلي بن محمد السيد الشريف الجرجاني ، تحقيق / نصر الدين تونسي ، ط شركة القدس للتجارة ، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧ م .

١٠ – التمهيد لقواعد التوحيد ، للإمام النسفي ، تحقيق / أحمد فريد المزيدي ، ط١ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧ م .

١١ – تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد ، لأبي إسحاق الصفار ، تحقيق د / عبدالله محمد إسماعيل ، ط١ – المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٤٣٤هـ – ٢٠١٢ م .

١٢ – تيسير القواعد المنطقية (شرح الرسالة الشمسية) أ د / محمد شمس الدين إبراهيم سالم – رحمه الله – ط٤ – مطبعة حسان بالقاهرة ، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م .

١٣ – الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، لعبدالقادر بن محمد القرشي ، ط مير محمد كتب خانة – كراتشي ، بدون تاريخ .

١٤ – شرح الأصول الخمسة ، للقاضي عبدالجبار ، تحقيق د / عبدالكريم عثمان ، ط مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٩م .

١٥ – شرح جديد على جوهرة التوحيد ، أ د / محمود عبدالحكيم عثمان ، ط٢ ، ٢٠١٧ – ٢٠١٨ م .

١٦ – شرح المقاصد ، لسعد الدين التفتازاني ، تعليق / إبراهيم شمس الدين ، ط٢ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ٢٠١١ م .

١٧ – الصفات الإلهية وأثرها في تشعب المذاهب واختلاف الفرق ـ أ د / حسن محرم السيد الحويني ، ط دار الهدى بالقاهرة ، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٤ م .

١٨ – غاية المرام في شرح بحر الكلام ، لحسن بن أبي بكر المقدسي ، تحقيق د / عبدالله محمد إسماعيل ، د / محمد السيد أحمد شحاته ، ط المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٤٣٧ هـ – ٢٠١٦م

١٩ – الفائق في أصول الدين ، لمحمود بن محمد الملاحمي الخوارزمي ، تحقيق د / فيصل بدير عون ، ط دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، ٢٠١٠ م .

٢٠ – فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ومباينتهم لسائر المخالفين ، للقاضي عبدالجبار بن أحمد ، تحقيق أ / فؤاد سيد ، ط الدار الكويتية للنشر ، بدون تاريخ .

٢١ – فلسفة المعتزلة ، ألبير نصري نادر ، ط دار نشر الثقافة بالإسكندرية ، بدون تاريخ .

٢٢ – القاموس المحيط ، لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، مراجعة / أنس أحمد الشامي ، وزكريا دابر أحمد ، ط دار الحديث بالقاهرة ، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨ م .

٢٣ – المحيط بالتكليف ، للقاضي عبدالجبار ، تحقيق / عمر السيد عزمي ، ط الشركة المصرية للصناعة، بدون تاريخ .

٢٤ – مختار الصحاح ، لمحمد بن أبي بكر الرازي ، ط دار الحديث بالقاهرة ، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م .

٢٥ ٠ المختصر في أصول الدين ، للقاضي عبدالجبار ، تحقيق د / محمد عمارة ، ط٢ – دار الشروق ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨ م .

٢٦ – المصباح المنير ، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري ، ط دار الحديث بالقاهرة ، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨ م .

٢٧ – المطالب العالية من العلم الإلهي ، للفخر الرازي ، ضبط / محمد عبدالسلام شاهين، ط١ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م .

٢٨ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، أ/ محمد فؤاد عبدالباقي ، ط دار الحديث بالقاهرة، ١٤٣٩هـ – ٢٠١٨ م .

٢٩ – معجم مقاييس اللغة ، لأبي الحسن بن زكريا الرازي ، ط١ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م .

٣٠ – المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، ط وزارة التربية والتعليم بالقاهرة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .

٣١ – المفردات في غريب القرآن ، لأبي القاسم الحسين بن محمد ، المعروف بالراغب الأصفهاني ، ط٣ – المكتبة التوفيقية بالقاهرة ، ٢٠١٣ م .

٣٢ – الملل والنحل ، لعبدالكريم الشهرستاني، تحقيق / محمد فريد ، ط المكتبة التوفيقية ، ٢٠٠٣م .

٣٣ – المنية والأمل ، للقاضي عبدالجبار ، تحقيق / كامل عويضة ، ط المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٤٤٠هـ – ٢٠١٩ م .